الحلقة المفقودة في معادلة الحضارة من منظور التنوير الياباني: إنجازات العزلة وتطورات الانفتاح

ناصر يوسف*

الملخص

يهدف هذا البحث إلى استكناه الأنموذج الإنمائي الياباني داخل العناصر الحضارية التي ارتسمها مالك بن نبي: الإنسان، والأرض، والوقت. وكذلك امتحان هذه العناصر داخل النموذج الياباني، واختبار نضج الفكرة في حقل التجربة اليابانية، محاولاً الإجابة عن تساؤلين اثنين: هل تسعى هذه العناصر الحضارية الثلاثة إلى إحداث تنمية فيها كثير من طابع البداوة، أو التأسيس لتنمية مُتحضِّرة؟ هل توجد حلقة مفقودة داخل هذه العناصر كانت –فيما بعدُ– سبباً في نجاح انفتاح اليابان على الغرب؟

وقد انتهينا إلى أنّ منظومة العلاقة الدولة–الإنسان هي الحلقة المفقودة في المعادلة الحضارية؛ فمن غيرها تبقى عناصرها كما ارتسمها ابن نبي بدويةً، وعلى نحو ما عاينه ابن خلدون أيضاً.

الكلمات المفتاحية: اليابان، البداوة، الحضارة، العزلة، الإقطاع، الانفتاح، التنمية.

The Missing Link in the Equation of Civilization from the Perspective of Japanese Enlightenment: Achievements of Isolation and Development of Openness

Abstract

The study aspires to investigate the Japanese model of development based on the elements of civilization - namely man, the earth and time - as portrayed by Malik bin Nabi. It intends to examine these civilizational elements in the context of the Japanese model, and to investigate the level of maturity of civilizational thoughts in the Japanese experience. The study tries to answer two questions: first, are those three elements of civilization moving towards development that is characterized more by nomadism or towards civilized development? Second, is there a missing link within those civilizational elements that was later the cause of Japan's successful opening to the West? The study concludes that the state-man relationship is the missing link in the equation of civilization, and without this additional element, development, as portrayed by Ibn Nabi and Ibn Khaldoun, remains nomadic.

Key words: Japan, Nomadism, Civilization, Isolation, Feudalism, Openness, Development

---

* باحث جزائري، مركز البحوث–الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. البريد الإلكتروني: youcef.nasser@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٤/٣/٢٥م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٤/١١/٨م.

مقدمة:

يستعرض البحث عناصر المعادلة الحضارية (الإنسان، الأرض، الوقت) كما تواضع عليها مالك بن نبي، وارتسمها طريقاً حضارياً. وفي الوقت الذي نميل فيه إلى أنّ اليابان تُمثِّل نموذجاً لهذا الانتقال الفاعل قياساً على مدى استنطاقها عناصر المعادلة الحضارية وترجمتها إلى علامات هادية؛ فقد وقفت هي الأخرى على إضافات رسّخت واقع المعادلة الحضارية وأغنته، وبصّرت الرؤية أمام تصوّر مستقبل أفضل وأبلجته.

ونحن إذ نقف على مسألة التنوير، فإنّه لا بُدّ من الإشارة إلى الميجي (أي المُنوِّر) الذي يتقرَّب بمشروعه الإحيائي إلى التراث، ويخطب ودَّه، خاصّةً أنّ التنوير بالإحياء يُعَدّ مناعةً حضاريةً أمام التحديث الذي تفرضه النماذج الإنمائية الغربية بحكم نجاحاتها، وبسط مقولاتها.

وقد ارتأينا استخدام بعض المفاهيم دون غيرها، مثل: البداوة، والحضارة؛ لأنّها وحدات التحليل التي استعملها ابن خلدون، وابن نبي.

وبالرغم من وجود كتابات انتصرت لميجي، وعَدَّته مهندس النهضة، إلّا أنّ بحثنا هو استمرار لما جاء في كتابنا "الدينامية"[١] الذي سبق أن أشرنا فيه -بإيجاز- إلى أهمية فترة توكوغاوا في إنجاح مهمة ميجي، ونحاول ها هنا معالجة العزلة اليابانية على نحوٍ مُوسَّع.

إنّ ما يدعونا إلى الاهتمام بالتجربة اليابانية، هو أنّ العيش في جماعة يكاد يكون القاسم المشترك بين البداوة والحضارة؛ إذ إنّه يُمثِّل سرّ التنمية المستدامة في اليابان التي أفادت من حريات عصر الانفتاح بعد ما كانت شبه غائبة في فترة العزلة، وهي الفترة التي اقتضت استدعاء العديد من العناصر الحضارية؛ كالإنسان، والأرض، والوقت، للخروج من المأزق الذي تعايشه. وهذه العناصر هي نفسها التي أوردها ابن نبي في مشروعه "مشكلات الحضارة" بتنسيق وترتيب محكمين. لذا، رأينا أن نقيم امتحاناً للفكرة داخل الواقع، ونستخدم هذه العناصر وحدةً للتحليل صارمةً؛ نظراً إلى قدرتها على تمييز بحثنا من

[١] يوسف، ناصر. **دينامية التجربة اليابانية في التنمية المركّبة: دراسة مقارنة بالجزائر وماليزيا**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١٠م.

الكتابات السردية التي تنتصر لتوكوغاوا وتنقل إنجازاته من غير فحص ومساءلة، وأخذ العبر؛ جرياً على طريقة ابن خلدون وابن نبي.

إنّ ما سنبرزه يؤكّد حقيقة أنّ عناصر الحضارة تكون فاعلة في إرساء دعائم التحضّر وترسيخها في ظلّ وجود الدولة–التنمية، على شرط استنادها إلى القيم التاريخية الفاعلة، والقيم الحضارية العاملة.

وتأسيساً على ذلك، فإنّنا سنتعامل مع عناصر الحضارة، إلى جانب الدولة–التنمية، بوصفها فكرةً ناضجةً سبق أن نبّهنا لها في كتابنا "الدينامية"، ونحاول أن نبرزها على أنّها فرضية جديدة تسمح بالإفادة من النماذج الإنمائية الآسيوية الناجحة، لا الوقوف عندها وحسب؛ فالتوقّف أو الحنين إلى الماضي يكاد يتحوّل إلى أمراض إنمائية مزمنة في العالم العربي الإسلامي.

ويسعى بحثنا أيضاً إلى تسليط الضوء على فترة الإقطاع التي تمثَّلت عناصر الحضارة الثلاثة؛ لإثبات أنّها (العناصر) ليست أساس كلّ حضارة. فالإقطاع كان بدوياً في تصرّفاته الإنمائية، ومع ذلك فقد تحقَّقت فيه هذه العناصر الحضارية بامتياز. أمّا عصر ميجي فإنّه يُعَدّ حلقةً من حلقات التاريخ الياباني الحافل بالإنجازات؛ إذ كان سبباً فيما وصلت إليه اليابان من رفعة، حيث عزَّزت الدولة–التنمية من تماسك عناصر الحضارة واستدامتها.

وهكذا تنطلق هذه الدراسة في محاورها الرئيسة، بدءاً بإقطاعية توكوغاوا، وانتهاءً بفترة ميجي المتحرِّرة، وذلك للوقوف على عناصر الحضارة لدى كلٍّ منهما. ومن ثَمّ ترانا نتساءل: هل يمكن لهذه العناصر أن تَنْشُد حضارةً؟ لماذا رفع ميجي شعار التحضُّر بعد انقطاع الإقطاع؟ ألم تكن هناك علامات تُخبِر عن جنين حضاري يُطِلّ من رحم توكوغاوا الإقطاعي؟ هل لنا أن ننعت العزلة بالتنمية المتبدِّية محاكاةً لمصطلح "العمران البدوي" على نحو ما عاينه ابن خلدون؟

ومن الأسئلة التي تعترض سبيلنا أيضاً:

-هل وقف اليابانيون على المعادلة الحضارية في فترة العزلة؟

-هل استطاع اليابانيون فكّ العناصر الحضارية وتحويلها إلى علامات هادية للعزلة؟

-هل كانت العناصر الحضارية التي تشكَّلت معالمها في فترة العزلة كافيةً لإحداث تنمية متحضِّرة؟

-هل توجد حلقة مفقودة داخل هذه العناصر كانت سبباً في نجاح الانفتاح، وتخطّي مرحلته الحرجة من غير تعجيل الفشل وتحصيله؟

أولاً: فاعلية الإقطاع التوكوغاوي (التنمية المتبدِّية)

لقد أسهم الأوروبيون في القرن التاسع عشر الميلادي في تضخيم العزلة (١٦٣٨م-١٨٥٨م) التي عاناها عصر توكوغاوا[٢] (١٦٠٣م-١٨٦٧م)، وأرادوا بذلك تشويه صورة اليابان، مع أنّ اليابان في هذا العصر (القرن السابع عشر الميلادي تحديداً) كانت قد اعتزلت؛ فلم تكن هناك دورات تدريبية لإغلاق البلاد، ولكن "شرعت مجالس الباكوفو[٣] باتخاذ قرارات عدتها سياسة واعية تمثلت في إيقاف العلاقات السياسية مع الخارج، وفرض قيود على تصدير الأسلحة، ومنع دخول المسيحية إلى اليابان، وحظر سفر اليابانيين إلى الخارج إلا بموافقة أمنية."[٤]

وقد توخَّت هذه السياسة تحصيل الاستقرار، لا الانطواء على الذات؛ إذ جعلت العزلة من الإنسان والأرض والوقت طرفاً شريكاً في إعادة البناء، خاصّةً أنّ معظم الفئات التي تضرّرت من الانقسامات كانت تتطلّع إلى شيء من هذه الإجراءات. لذا، فإنّنا سنعالج الفترة الإقطاعية من داخل هذا الثالوث الحضاري (الإنسان، والأرض، والوقت)،

[٢] توكوغاوا إياسو (١٥٤٣م-١٦١٦م): مُؤسِّس سلالة التوكوغاوا التي حكمت اليابان مدّةً ناهزت ٣٠٠ عام، وهو أحد القادة الثلاثة الذين أسهموا في توحيد الأرض اليابانية.

[٣] باكوفو: نظام سياسي إقطاعي أنشأه توكوغاوا، وكان يديره الشوغون (القائد العام للجيش الإمبراطوري في عصر توكوغاوا).

[4] Toby, Ronal P. *State and Diplomacy in Early Modern Japan: Asia in the Development of the Tokugawa Bakufu*, Stanford: Stanford University Press, 1991, p11-12.

وهو –لا شكّ– غاية ما يراه الإنسان، ويقبع في عزلته. فعندما "يعتزل الإنسان وحيداً، ينتابه شعور بالفراغ الكوني؛ لكن طريقته في ملء الفراغ؛ هي التي تحدِّد طُرُزَ ثقافته وحضارته؛ أي سائر الخصائص الداخلية منها والخارجية لوظيفته التاريخية."[٥] ومثل هذه المُحدِّدات هي ما سعت العزلة اليابانية إلى استثمارها.

١. الإنسان:

يكمن سرّ تفوّق الإنسان الياباني وتميّزه في بذل الجهد بمعايير عملية تجعل صاحبها أشدّ ذكاءً في التعامل مع الأفكار، وأكثر مهارةً في تطويع الأشياء وتطويرها. وقد تجلّى ذكاء الإنسان الياباني في التعامل مع الاقتباسات الصينية، فأخذ الأفكار، وترك للصين أسماءها ومصطلحاتها. فاليابانيون كانوا أقل تبعيةً إلى الصين مقارنةً بدول أخرى، مثل كوريا وفيتنام، التي تعاطت مع التراث الصيني من غير فرز. "وعلى الرغم من أن اليابانيين كانوا يدرسون المؤسسات الصينية في جميع الفترات، فإنهم لم يستوردوا الأسماء والمصطلحات؛ بل لعلهم اكتفوا بالأفكار التي كانت تلك المؤسسات تعكسها [...] بقي اليابانيون، على هذا الصعيد، أقل عبودية بما لا يقاس، من نظرائهم في دول آسيا الشرقية."[٦]

وهذا التمييز بين الشكل والمضمون ليس أمراً هَيِّناً يُتقِن فعله كلّ إنسان؛ فإنّ اليابان التي تحيّزت للتواصل مع أسلافها، تميّزت بالفصل عن الصين الدولة. ومن ثَمّ فقد حمل اليابانيون لواء التنوير من غير أن تقف النصوص الصينية عائقاً أمام البحث عن عالم أفضل، إيماناً بأنّ الصين ليست أفضل العوالم كما كان يعتقد اليابانيون. ولعل هذا يُعَدّ أول الإنجاز، وهو أن ينجو الإنسان من التبعية للآخر وهو بحاجة إليه؛ إذ عُدَّ استيراد المصطلحات استهانةً بالعقل الياباني. لقد كانت النخبة اليابانية تشتغل مُتحرِّرة من عقدة الآخر، ومثل هذا الفعل الاحترازي لا يزال يلازمها.

---

[٥] ابن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، بيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٠م، ص١٧.

[٦] كاتزنشتاين، بيتر جي (محرر). **الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية**، ترجمة: فاضل جتكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط١، ٢٠١٢م، ص٧٤.

وقد امتازت النخبة اليابانية بحسّ حضاري أسهم في التفريق بين الداخل في صورة أفكار قابلة للنقد والمراجعة والإضافة والإفادة، والدخيل في صورة أسماء ومصطلحات حبيسة بيئتها، ومثل هذا الحسّ الحضاري هو مبعث كلّ تنمية أمكنها التفوّق على المستفاد منه. ففي الوقت الذي كانت فيه الصين غارقةً في الآداب كان اليابانيون عاكفين على إبداعات مستقبلية؛ إذ توجّهت النخبة اليابانية إلى تعلّم اللغة الهولندية على امتداد مئة عام ويزيد، على نحو ما يستذكر فوكوزاوا الأب الروحي للنهضة اليابانية، بحيث "كان على الراغبين في دراسة علم المدفعية القيام بذلك وفقا لنهج الهولنديين، الذين كانوا الأوربيين الوحيدين الذين سمح لهم بالتفاعل مع اليابان بعد القرن السابع عشر."[٧] ولمّا كانت مدينة نكازاكي تُمثِّل المنفذ الوحيد الذي تُطِلّ به اليابان على العالم الخارجي، فإنّ العزلة كان فيها شيء من الحضارة؛ فهي لم تجرِ قطيعةً مطلقةً مع العالم. لقد كانت هناك عزلة جغرافية، لا معرفية؛ لأنّ المعرفة ظلّت تُحقِّق انتصارات. فقد كانت علاقة اليابان بالصين "ثقافية واقتصادية أكثر، سياسية أقل، وعسكرية معدومة بالمطلق، إضافة إلى أن العلاقة الثقافية كانت مع الأدب الصيني، لا مع الصين."[٨]

ولا شكّ في أنّ أهم ما ميّز فترة العزلة هو ذلك البُعْد الحضاري في المعركة الذي كان أمل النخبة في الانتصار على البداوة. ومن العلامات التي تشير إلى أنّ الياباني كان فيه شيء من الحضارة عدم انفصاله عن مجتمعه؛ إذ لم يحصل تمييز مفتعل بين النخبة والناس العاديين في ملامحهم وملابسهم وحياتهم العامّة، وإنْ كانت النخبة قد سكنت المعابد وتخرّجت فيها، فإنّ العامّة عبدوا الأرض وعمروها؛ فذابت الفوارق والطبقات، لا سيّما بين النخبة والفلاحين.

لقد شكَّل هذا التفاعل أول مداخل الحضارة؛ إذ التحضّر هو "أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة."[٩] فليس من السهل أن يتحرّر الإنسان من الآخر وهو بحاجة

---

[٧] يوكيتشي، فوكوزاوا. **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، ترجمة: كامل يوسف حسين، أبوظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٥٣.

[٨] كاتزنشتاين، **الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية**، مرجع سابق، ص١٥٩.

[٩] ابن نبي، مالك. **ميلاد مجتمع**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ط٨، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٩٤.

إليه، وليس سهلاً أن يعيش الإنسان في جماعة وهو في غنىً عنها بمعارفه كما هو الشأن مع النخبة، وهذا أيضاً فعل حضاري مهم؛ إذ "إن أول الأبواب إلى الحضارة أن نواجه المشكلات مستبشرين لا متشائمين."[١٠] ومثل هذا التفاؤل المفتوح هو ما حدا بفوكوزاوا إلى القول عن تحصيل العلم في فترة العزلة: "كنا نكدح في الاشتغال على نصوص أجنبية صعبة دون غرض واضح. غير أنه إذا قدر لأحد أن يطلع على دخيلة أنفسنا لوجد أن هناك لذة خفية كانت مصدر عزاء لنا."[١١]

إنّ العيش في جماعة هو الذي دفع فوكوزاوا إلى الاعتراف، قائلاً: "لم يكن نجاحي راجعاً إلى قدرتي، وإنما كان سببه العصر الذي جئت لأكون في خدمته."[١٢] أمّا بالنسبة إلى التفاؤل الذي قهر صعوبات العزلة، فيصف فوكوزاوا الجرأة اليابانية العظيمة، قائلاً: "في عام ١٨١٦ أصبح علم الملاحة مفهوماً بصورة كافية بحيث يمكن الإبحار بسفينة عبر المحيط الهادي، وهو ما يعني أنه بعد سبع سنوات من مشاهدة أول سفينة بخارية، وبعد خمس سنوات فقط من الممارسة، قام الشعب الياباني بأول عبور للمحيط الهادي، دون مساعدة من خبراء أجانب وأعتقد أن بمقدورنا، من غير تفاخر في غير موضعه، أن نتباهى أمام العالم بهذه الشجاعة والمهارة."[١٣]

لقد كان التعلّم المتفائل هو السرّ في أنّ الإنسان الياباني حافظ على معهوده الحضاري وهو يقبع في عزلته؛ لأنّ التعليم فعل حضاري تفطَّنت له اليابان مبكِّراً فلم تقف العزلة عائقاً أمامه؛ إذ إنّ التعليم الذي هو فعل حضاري يستجلب العلم والتكنولوجيا، على نحو ما استخلص ابن خلدون: "الحضارة هي سر الله في حصول العلم والصنائع."[١٤] وما ذلك إلّا لأنّ الفعل الحضاري (اقرأ) كان يخفي داخله نجاح الاستخلاف الإنساني؛ فقد كانت اليابان المعتزلة "تستورد ألف كتاب صيني في السنة."[١٥]

---

[١٠] ابن نبي، مالك. **تأملات**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ط١٠، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٣٠.

[١١] يوكيتشي، **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، مرجع سابق، ص١٢٥.

[١٢] المرجع السابق، ص٢٨٧.

[١٣] المرجع السابق، ص١٤٥.

[١٤] ابن خلدون، عبد الرحمن. **مقدمة ابن خلدون**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص٥٤٥.

[١٥] كاتزنشتاين، **الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية**، مرجع سابق، ص١٦٥.

وكان الطلاب يستنسخون هذه الكتب ويوزّعونها على أقرانهم، ومن ذلك كتاب ضخم في الفيزياء مشهور ونادر باللغة الهولندية عن الكهرباء تتصدّره إيضاحات لخلية كهربية، قامت مجموعة من طلاب المعبد بالعمل على استنساخه ليلاً ونهاراً. يقول فوكوزاوا عن أهمية هذا الكتاب: "لست أتردد في القول إن زملائي الطلاب قد أصبحوا الرجال الأكثر اطّلاعاً على العلم الجديد في اليابان بأسرها، وإني لأجرؤ على القول بأنني مدين لنسخة هذا الكتاب بالكثير من المعرفة التي مكَّنتني من أن أتفهم شيئاً من الصناعة الكهربائية اليوم."[١٦] وهذا يعني أنّ اليابانيين تعلّموا اللغة الهولندية والإنجليزية لنقل العلوم، في حين ظلّ لسانهم يابانياً، وكذلك قلمهم وتفكيرهم؛ وهذه كلّها أفعال حضارية انتشلت العزلة من المسار غير الحضاري الذي قد تقع فيه أيّ عزلة.

وليس الحضارة أن يكون الإنسان مثل الآخر، وإنّما يكون هو آخر في حاجاته بالنسبة إلى الآخر في وسائله. لقد قلَّد اليابانيون الوسائل، لكنّهم لم يُقلِّدوا الحاجات؛ فلكلّ بلد حاجاته في إطار تطلّعاته الحضارية، والفعل الحضاري ثابت في الإنسان حتى لو كان عاجزاً عن التطبيق لأسباب قمعية، وهذا الفعل ليس أمراً عبثاً، وإنّما هو يُؤسِّس للمستقبل؛ فمَن يقرأ يجد، ومَن يكدح ينجح. يقول فوكوزاوا عن هذا التعلّم من الآخر الممزوج بالألم: "وباختصار فإننا –معشر الطلاب– كنا ندرك الحقيقة القائلة إننا كنا الملاك الوحيدين للمفتاح المفضي إلى معرفة الحضارة الأوربية العظيمة. وأيّاً يكن قدر معاناتنا من الفقر، وأيّاً كان مدى بؤس الملابس التي كنا نرتديها فإن نطاق معرفتنا وموارد ذهننا كان يتجاوز مطال أي أمير أو نبيل، فإننا كنا فخورين به، ونحن نعلم أنه ما من أحد يعرف ما احتملناه."[١٧] فقد تميّزت فترة العزلة العصيبة ببذل الجهد ومضاعفة الوقت، ناهيك عن المضايقات التي تعرّض لها الطلاب من الإقطاعيين بتهمة تعلّم اللغات الأجنبية.

ومع أنّ الإقطاعيين كانوا على قدر من المعرفة، إلّا أنّ معرفتهم لم تكن إنسانيةً، وخطاباتهم لم تكن حضاريةً، ممّا حدا بفوكو إلى القول ساخراً: إنّ ديكتاتور اليابان

---

[١٦] يوكيتشي، **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، مرجع سابق، ص١٢٤.

[١٧] المرجع السابق، ص١٢٥.

شوغون في القرن الثامن عشر الميلادي سمع "عن ملاح إنجليزي كان يمتلك سرّ هذه الخطابات استقدمه إلى قصره وأبقاه عنده حيث تلقى منه على انفراد دروساً. لقد تعلم الحاكم الرياضيات واحتفظ بعدها بالسلطة وعاش طاعنا في السن، أما اليابان فلم يتوفر لها رجال في الرياضيات إلا مع حلول القرن ١٩."[١٨] وقد هدف فوكو من هذا القول إلى تأكيد أنّ الاستبداد الشرقي وبداوته يحتكران الخطابات المعرفية.

ومع ذلك، فإنّ هذه البداوة كان فيها شيء من التحضُّر، لا سيّما اهتمام توكوغاوا بالتعليم وربطه بالقوانين الكونفوشيوسية التي تجلب الاستقرار. لقد حقَّقت اليابان بفعل العزلة نتائج كان لها تأثير في الشخصية اليابانية، ولعل أهمها الاعتماد على الذات، وتقوية النزعة الجماعية، والتدقيق في كلّ ما يأتي من الخارج؛ فيكون التقليد لتحصيل الإبداع والابتكار، ثمّ بناء منظومة تربوية فريدة متميِّزة. فقد "اعتمدت فترة توكوغاوا سياسة تربوية فريدة من نوعها تستهدف تطوير مواد أدبية وفنية عن طريق الساموراي، والسعي المنهجي لتقوية مهارات القراءة والكتابة."[١٩]

وقد أسهمت العزلة في زيادة الإنتاجية، وذلك بتكثيف الجهد، فضلاً عن توجيه التعليم ليتوافق مع التقسيم الطبقي، فتأسّست مدارس خاصّة بأبناء رجالات الإقطاع والساموراي، تُسمّى "هانكو"؛ وهي مدارس تجمع بين الأخلاق والمهن، وتعمل على تدريس الكونفوشيوسية لأبناء المحاربين بهدف تنمية شخصياتهم، إلى جانب تعليمهم المهارات الإدارية والحربية. وقد انتشرت هذه المدارس بحيث بلغت ثلاثمئة مدرسة في مختلف أرجاء اليابان، وكان ذلك قبل منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. أمّا مدارس المعابد الدينية (التراكويا) فقد كانت اختياريةً، ولم تشترط سنّاً معيّنةً للالتحاق بها.[٢٠] وقد اشتُهرت هذه المدارس بتدريس الحساب واللغة الصينية وفنون القتال، إلّا أنّ مدارس معابد أوساكا

---

[١٨] فوكو، ميشيل. **جنيالوجيا المعرفة**، ترجمة: أحمد السطاتي، وعبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٨م، ص١٧.

[19] Duke, Benjamin. *The Japanese School: lesson for Industrial America*, London: Westport, Connecticut, 1986, p 61.

[20] Marshal, Byron K. *Learning to Be Modern: Japanese Political Discourse on Education*, Oxford: Westview Press, 1994, p18.

جمعت بين اللغة الصينية والهولندية؛ نظراً إلى قرب أوساكا من نكازاكي. وقد برع فوكوزاوا في تعلّم اللغات الصينية والهولندية والإنجليزية؛ إذ كانت مدارس المعابد فرصةً لأبناء الفلاحين للتنصُّل من التصنيف الإقطاعي، فالتحق بها ما نسبته ٤٠% من أبناء المزارعين، وكانت هذه المدارس تُدرِّس الأخلاق والحساب واللغات. ومع أنّ اللغات الأجنبية كانت هامشيةً، إلّا أنّها أسهمت في إثراء حقل الترجمة.

وإلى جانب مدارس المعابد التي انشغل طلابها بالطب والرياضيات والفيزياء وعلم المدفعية، فقد ظهرت مدارس خاصّة بأبناء العامّة تُسمّى (جيجوكو)، و"يكمن دورها في تشجيع الطلاب على إثارة الأسئلة في قضايا دينية ظلت حكراً على الطبقة المتعلمة من الساموراي."[٢١] وكذلك أُسِّست مدارس خاصّة في المدن الكبرى وهي للعامّة، ولم يكن يسمح للبنات بدخول المدارس عدا مدارس المعابد، أو المدارس الخاصّة. ومن ثَمّ "فإن نسبة المتعلمين الذكور القادرين على القراءة والكتابة في المهارات الحسابية الأساسية، حتى منتصف القرن التاسع عشر، بلغت ٤٥%، بينما بلغت نسبة اللائي يقرأن ويكتبن من الإناث ١٥% تقريباً، وهي نسب لا تقل كثيراً عن أكثر الدول الغربية تقدماً في ذلك الوقت بل تجاوزتها."[٢٢]

وقد انتشرت أيضاً ظاهرة التعليم في المخازن، وهي خاصّة بالأطفال الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين (١٢-١٣) سنةً، والذين لم يكملوا تعليمهم لظروف مادية. ومعظم هؤلاء الأطفال (يُطلَق عليهم اسم هوكونين) كانوا من أبناء التجار والطبقات الوضيعة، وقد دُرِّبوا على نظام العمل؛ لأنّهم كانوا يعملون في الشركات العائلية الكبرى. وكان يُفترَض بهؤلاء الأطفال أن يعرفوا أساسيات الكتابة، والثقافة، والأخلاق، والعلوم العسكرية، والعمليات الحسابية، وأن يكتسبوا المهارات اللازمة قبل الالتحاق بالشركات.

---

[21] Simmons, Cyril. *Growing up and going to School in Japan: Traditional and Trends*, Philadelphia: Open University Press, 1990, p 11.

[22] Kuroda, Kazuo. "Educational Development Experience", in: Toyado, Toshihisa et al. (eds.). *Economic and Policy Lessons from Japan to Developing Countries*, New York: Palgrave Macmillan, 2012, p148.

وفي ظلّ هذه العزلة والتقسيم الطبقي فقد تَعبَّأ المجتمع تربوياً، وكان لبذل الجهد النصيب الأكبر في هذه التعبئة التربوية، فبرزت إثر ذلك حركة فكرية أسهمت في تطوير التعليم، وظهرت أول مرّة بحوث ودراسات وطنية قام بها طلاب المدارس؛ حيث كان الانشغال البحثي قائماً على معرفة الأصول القومية لليابان، فازدهرت علوم التاريخ واللسان، ثمّ علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والخرائط.

لقد درج الإنسان الياباني على امتلاك الحسّ الحضاري الذي نستشفّه من مسايرته لعصر التنوير الأوروبي، هذا التنوير الذي كان يقوده فوكوزاوا في مرحلة شبابه. ولا شكّ في أنّ التنوير الياباني كان يعمل على الإفادة غير المباشرة من التنوير الأوروبي، ومن دون احتكاك منظور؛ فكلاهما كان في عزلة من نوع خاصّ: الأوروبيون كانوا في تحوّل تنويري بعيدين من تدخّل القوى العظمى، واليابانيون يمارسون تنويرهم الخاصّ في ظلّ ضغوطات العزلة والإقطاع، ولكنّ المستقبل كان ينتظر الاثنين معاً؛ لأنّ الأفعال الحضارية لا تمضي قُدُماً، ولا تأمر بأمرها، ولا تضارع غيرها إلّا إذا توافرت لها الدولة–التنمية؛ وإلّا باتت أفعالاً حضاريةً تخلتط بالبداوة في ظلّ طغيان السياسي والعسكري على الثقافي والنخبوي؛ لأنّ النخبة تظلّ ضعيفةً إذا عجزت عن قول الحقيقة، وإيصال المعرفة لأسباب قهرية وقمعية. إنّ النخبة التي تجترح مواقفها من الفعل الحضاري لا تتعايش بسلام، ولا تنعم بتبادل الكلام مع السلطة الإقطاعية التي تمتح فعلها البدوي من الرفض.

يشار إلى أنّ السلطة الإقطاعية لم تكن ظالمةً إلى حدّ خراب العمران، وإنّما كانت تنشد الاستقرار الذي جعل دائرة الظلم ضيّقة. وأنّ النخبة كانت متفهّمةً، ولم تكن بدويةً في الإعراض المتوحش، بل كانت أقرب إلى الانقياد للسياسة، فحافظت على العمران البدوي. وفي الوقت الذي كانت فيه النخبة تتقوّى وتشرع في وتيرتها الحضارية نحو المزيد من القراءة والاستكشاف والإبداع والابتكار، كان قمع السلطة يتراجع.

وما من شكٍّ في أنّ معالم الدولة–التنمية كانت تتشكّل داخل هذا الصراع بين بداوة الإقطاع وحضارة النخبة. والأهم أنّ هذه البداوة فتحت لنفسها كوَّة حضارية ترى من خلالها الحقيقة التي تبحث عنها، ولكن كانت ترفضها في قرارة نفسها. "إلا أن الحاجة في

أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم لأن القلم في تلك الحال خادم فقط [...] وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك."[٢٣]

لقد كان الياباني المتعلّم حبيس السلطة الإقطاعية؛ لأنّ بداوة العزلة كانت تشترط حصول التنمية من غير حرية، وهي تنمية مُختزَلة تعتمد على الأرض؛ فكانت لا تتيح للإنسان (العنصر الحضاري الأول) هامشاً كبيراً من الحرية لأسباب تتعلّق بالخوف من كلّ شيء حرّ، فيكثر الافتراس الذي هو صفة بدوية خالصة، ومع ذلك كان يقوى فاعل الاحتراس من غير أذىً كفعل حضاري، تصديقاً لقول ابن خلدون: "فطور الدولة من أولها بداوة".[٢٤]

وبالرغم من ذلك كلّه، فقد كان الياباني جاهزاً للتحضُّر، ومثل هذا التفاؤل هو سرّ نجاح اليابان. فالنخبة اليابانية ظلّت تُمثِّل دور الإنسان المتفائل على الرغم من الظروف القمعية. إنّ التحضُّر -بخلاف التبدِّي- هو عملية إنسانية مركّبة تستوعب الطبقات والفوارق، وتستقطب المهارات والخوارق. وهو طريق حضاري ظلّ يتكشَّف لليابانيين يوماً بعد آخر.

٢. الأرض:

التراب بالنسبة إلى ابن نبي هو المادة، أو المواد الأولية، أو الأرض. وقد كان توكوغاوا يَعُدّ الأرض أساس استقراره واستمراره، فاستند إلى القوانين الكونفوشيوسية التي تدعو إلى بذل الجهد في إطار التعاون بهدف مضاعفة المحصول، وهي طريقة ذكية للحفاظ على الاستقرار السياسي بتفعيل التعاون الاقتصادي في إطار "اجتماع الأيدي على العمل بالتعاون."[٢٥] إذ يتجه التعاون نحو عيش الإنسان في جماعة، والأرض هي محكّ العيش وليس مفكّه، خلافاً للمشروعات الحرفية والتجارية التي جاءت في المراتب الأخيرة، واحتُقِر

[٢٣] ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٧.
[٢٤] المرجع السابق، ج١، ص١٧٢.
[٢٥] المرجع السابق، ج١، ص١٧٧.

أصحابها لأنّها عملية فردية تجلب كثيراً من الأنانية، وتُوطِّن حبّ الذات، وأصحابها يمكن أن يكونوا أداةً مُموِّلةً للأعداء، علاوةً على أنّ الإقطاعيين كانوا يجهلون طبيعة هذه المشروعات الفردية، ومن ثَمّ "فإن التوكوجاوا والدايميو ومجموع الطبقة الأستقراطية تمسكوا كلهم وبعناد بفكرة أن الزراعة تشكل المورد الوحيد لثروة البلاد."[٢٦] ممّا يعني أنّ اليابان كانت تعيش إرهاصات أوروبا وهي في طريقها إلى التحضُّر، من غير اتصال بها، أو تواصل في أمور اقتصادية.

وهذا يعني أنّه كان يُنظَر إلى الأرض بوصفها مورداً مالياً مهماً للحفاظ على الاستقرار في ظلّ التعاون ومضاعفة الوقت؛ إذ تُعَدّ فكرة التعاون الشرط الرئيس لإمرار المشروعات الإنمائية وقبولها لدى توكوغاوا. ومثل هذا الصنيع نراه تقديراً حسناً، ولكنّ فيه من البداوة شيئاً كثيراً إذا أحلناه على ابن خلدون في قوله: "أما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجّار أو حدّاد أو خياط أو حائك أو جزّار [...] إذ هي وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها."[٢٧] ومن هنا كانت هذه المشروعات الحرفية والتجارية وسيلةً للأرض الزراعية لدى الإقطاعيين، فلا تضاف إلى الثروة المالية.

إنّ البحث عن تراكم المال كان غاية الإقطاعيين، والأرض كانت أهمَّ وسيلة لغاية اقتصادية تستجلب غايةً سياسيةً تتمثّل في الاستقرار، ولكنّ الحرفيين والتجار كانوا يراكمون الأموال بعيداً عن عيون (الشوغون) الذين كانوا يُصنِّفون الحرفيين والتجار في المراتب الأخيرة بعد المحاربين الإداريين والفلاحين. ولا شكّ في أنّ الحرفيين والتجار قد استفادوا مادياً من هرم التراتبية إلى حدّ ما؛ ففي ظلّ الحسابات البدوية للشوغون، فإنّه لم تُفرَض ضرائب كثيرة على الحرفيين والتجار مثلما فُرِضت على الفلاحين البسطاء.[٢٨] وقد رسمت هذه الحسبة البدوية أفقاً حضارياً أمام قطاعات اقتصادية أخرى. ففي ظلّ الضرائب القليلة

[٢٦] رايشاور، أدوين. **تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما**، ترجمة: يوسف شلب الشام، دمشق: منشورات دار علاء الدين، ط١، ٢٠٠٠م، ص٧٤.

[٢٧] ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠١.

[28] Macpherson, W. J. M. *The Economic Development of Japan 1868-1941*, Cambridge: Cambridge University Press, p 18.

على الأعمال الحرفية والتجارية، و"في ظل التكامل الاقتصادي على مستوى الأمة كلها، نمت طبقة من تجار المدن الأثرياء، وخصوصا تجار المدن الكبرى في ظل حكومات الشوغون وتحت حمايتها مباشرة، فظهرت البيوت التجارية الكبرى مثل بيوت تخمير البيرة وتخزين السلع الخاصة، وبيوت الإقراض المالي. ومن أبرز هذه البيوت التجارية (بيت ميسوري) الذي أصبح في العصر الحديث من أكبر شركات الأعمال الخاصة في العالم كله."[٢٩]

لقد بدا التراب التوكوغاوي فاعلاً؛ لأنّ الفعل الحضاري كان ماثلاً، وإلّا لكان ضُيِّق على القطاعات غير الزراعية، وصودرت أموال أصحابها، كما هي الحال في الأنظمة القمعية. أضف إلى ذلك أنّ الياباني الذي لم يكن مرتبطاً بالأرض ارتباطاً مباشراً، ولم يكن تحت رحمة الشوغون؛ تميَّز بالمغامرة، واكتسب روح المبادرة كما رأينا مع التجار والصناع؛ فهؤلاء كانوا يخلقون التوازن داخل القطاعات الاقتصادية غير المتوازنة. وقد تميَّز الياباني بالحسّ الإنمائي، فكان يشتغل في أمور تَعُدّها القيادة الإقطاعية حقيرةً كالتجارة، في الوقت الذي كان فيه الفلاحون يُمثِّلون ٩٠% من السكان. ومن ثَمّ فإنّ العزلة لم تُنقِذها الأرض وحسب، بل أسندتها المواد الأولية التجارية والحرفية، فضلاً عن المادة العلمية التي كانت تنضج ترقّباً لإحداث تكنولوجيا كانت على وشك البزوغ، وأخرى قد تفيّأ الغرب ظلالها وينتظر مَن ينافسه من اليابانيين؛ نظراً إلى ما "أورثهم نظام الإقطاع القديم من التنافس والمجد والقوة."[٣٠]

لم يسبق للأرض اليابانية أن توحّدت كما في عصر توكوغاوا؛ فقد تعايش الإقطاع مع العمران البشري والمادي الذي انقاد للسياسة. ومن المعلوم أنّ بكثرة العمران يكثر المال، ويعلو شأن الدولة، وتتعدّد المدن والحواضر، وتعظم المتاجر كما يورد ابن خلدون، ولكنّ الحكم الإقطاعي لم يكن قد تشكَّلت ملامح دولته الإنمائية بعدُ، فقد ظلّت في

[٢٩] رايشاور، أدوين. **اليابانيون**، ترجمة: ليلى الجبالي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩م، ص١٠١.

[٣٠] أرسلان، شكيب. **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟**، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت، ص١٣١.

طور البداوة تراقب الإمبراطور الرمز، لا سيّما الدايميو؛ أمراء الأقاليم الأقوياء الذين خضعوا لضوابط صارمة تتطلّب فرض الطاعة والولاء خلال رحلة سنوية شاقة إلى بلاط الشوغون. ومع ذلك، كانت الأرض أكثر تنوُّعاً، فقد حملت حملاً ثقيلاً أمكنه الصمود أمام العزلة لأمد طويل. وكما يعتقد سمير أمين لاحقاً، فإنّ مشكلة المعجزة اليابانية لم تُطرَح قطّ في إطار علاقة المركز بالمحيط، بحيث كان توسيع التجارة في المدن يُسهِم في تفكّك العلاقات الإقطاعية، يقول: "في اليابان كانت الظروف البيئية تضع أمامه حواجز جدية: فقد كان تقطيع الأرض الإقطاعي كما كانت استقلالية المدن التجارية يحدان من مركزة الدولة لدرجة أن التشابه بين اليابان وأوربا، رغم آلاف الكيلومترات، يثير الدهشة. بالتأكيد لن ينفتح المجتمع الياباني على الرأسمالية إلا بعد أن يلتقي الصدمة الخارجية. لكنه سيقوم بذلك بأكثر سهولة."[٣١]

وفي ظلّ هذا التقدّم شعر الإقطاعيون أنّ الوضع القائم يحتاج إلى قليل من الحرية. ففي "يابان توكوغاوا كان عنصر الشعب والأرض موحَّدين (كوكّا)، غير أن تمايزاتٍ مهمة سياسياً ما فتئت أن ظهرت في إطار ذلك التصور التقديسوي، بين ما هو رسمي وما هو غير رسمي، وبين ما هو اجتماعي وما هو غير اجتماعي."[٣٢] لقد منح الإقطاعيون الحرفيين والتجار هامشاً لا بأس به من الحرية في إدارة أعمالهم من غير تدخّل مباشر في شؤونهم، أو التعدي عليهم من غير أسباب واضحة. فما كاد قرن العزلة يتصرَّم حتى بلغ التراكم الاقتصادي درجة يضاهي تراكم الدول المتطورة، ممّا جعل الأرض تتهيأ بجدارة إلى الدخول في عصر صناعي ومالي وتجاري غير منظور؛ فمدينة أوزاكا ذات الموقع الاستراتيجي "ارتقت إلى مرتبة المرفأ التجاري الأول لليابان الغربية؛ حيث بنى فيها كثير من الدايميو بيوتاً تجارية يصرفون فيها إنتاجهم الزراعي أو يسلمون فيها إلى نشاطات اقتصادية كثيرة التنوع."[٣٣] فالتركيب الإنساني ضروري لعوائد التنمية؛ لأنّ "السلطان في

---

[٣١] أمين، سمير. **التطور اللامتكافئ: دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطة**، ترجمة: برهان غليون، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٤، ١٩٨٥م، ص٤٧.

[٣٢] كاتزنشتاين، **الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية**، مرجع سابق، ص٣٦.

[٣٣] رايشاور، **تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما**، مرجع سابق، ص٤٧.

نفسه ضعيف يحمَّل أمراً ثقيلاً فلا بدّ له من الاستعانة بأبناء جنسه. وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه."[٣٤]

وفي رأينا، فإنّ إنجازات الأرض اليابانية ترجع إلى ما قبل توكوغاوا؛ فمحدودية الأرض أوحت إلى اليابانيين باستحضار روح الجماعة، والعمل على زيادة المحصول أكثر من مرّة في السنة. والأرض أيضاً تحضَّرت لمّا جعلت الإنسان يعيش في جماعة، وهذا يُعَدّ فعلاً حضارياً. فقد كان لليابان ماضٍ مبدع على مستوى الإنسان والأرض، ولمّا تراكم الإبداع استولد حاضراً متراكماً من ذلك التميّز؛ فلا شيء يأتي من لا شيء. وكان هناك توحّد مادي ومعنوي بين الإنسان والأرض على مدار التاريخ، فمن "أواخر ١٨٠٠ إلى ١٩٢٠م كانت اليابان من أكبر المصدرين للحرير الخام ومعظمها كانت تتجه نحو الولايات المتحدة الأمريكية، وفي أواخر ١٩٢٠م صارت المنسوجات القطنية ثاني صادرات اليابان إلى آسيا وإفريقيا وبكميات أكبر."[٣٥] فقد ظلّت الأرض في اليابان تُمثِّل امتحاناً عسيراً للفعل الحضاري، وإذا كان هذا الفعل ظاهره الإنسان فإنّ الأرض باطنه.

وقد يستورد الإنسان أفعاله الحضارية في صورة وسائل عن طريق الاحتكاك بوسائل الحضارة. فإذا لم تكن معارفه وعلومه في خدمة الأرض فهذا دليل على وجود تناقض لا يُنجِز إلّا تنميةً متناقضةً مع قيمها، وذلك بخلاف ما وجدنا عليه يابان العزلة التي "شهدت نمواً في التصنيع، وكان النمو يتقدم ببطء ولكن بثبات، وحصل ارتفاع في غلة المحاصيل، وزيادة نسبة التوظيف الزراعي، وتنوع ملحوظ في الابتكارات التقنية، ونمو مذهل في الصناعات التي تلبي الاستهلاك الجماهيري لا سيما صناعة المنسوجات، واستحداث قرارات تشدد على الاستخدام الفعال للأراضي."[٣٦]

وتأسيساً على ما سبق، حين تكون الأرض متخلّفة، فإنّ التنمية المستوردة لا تذهب بالإنسان بعيداً، فينتقم الوقت؛ لأنّ وقت هذه التنمية يكون حينها قد احتلّ وقت تنمية

---

[٣٤] ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج١، ص٢٣٥.

[35] Takafusa, Nakamura. *Lectures on Modern Japanese Economic History 1926-1994*, Tokyo: LTCB International Library Foundation, 1999, p10.

[36] Smith, Thomas C. *Native Sources of Japanese Industrialization, 1750-1920*, California: University of California Press, 1980, p16.

الأرض غير المستوردة، فتتداخل الأوقات متقاتلةً ومُؤثِّرةً في مجهود الإنسان ومردود الأرض.

٣. الوقت:

كلّما امتدت القيم الأخلاقية أصيلةً في المجتمع كان الوقت فاعلاً. فالوقت يضيع غالباً في أمور غير أخلاقية، لكنّ إنفاقه في أمور أخلاقية يكون في مصلحة كلّ شيء إنساني وإنمائي؛ لأنّ التنمية قيم وأخلاق تستولد تنميات فاعلات، والقيم تحتل حيّزاً مهماً لدى الإنسان. والوقت إن لم يذهب إليها سيُهدَر في أمور غير عملية. وكما قلنا؛ فإنّ الأرض اليابانية وتحدياتها أوقفت الإنسان على احترام الوقت من أجل تحصيل الشيء النافع لجماعته؛ حتى تكون معاناته أقل، وحاجاته متوافرة على الدوام. وهذا فعل أخلاقي حضاري أن يهتم الإنسان بالوقت من أجل أسرته؛ فإنّ الجماعة هي التي تضاعف الوقت، وتمنحه بُعْداً حضارياً، وهو أن يعيش الإنسان في جماعة يهبها كلّ وقته. إنّ "الزمن زمن بالنسبة لكلِّ إنسان، ولكن بالنسبة للإنسان الفعَّال زمن تتولَّد فيه حقيقة من حقائق الحياة، ولحظات تنبض بالحيوية."[٣٧]

أمّا الوقت بالنسبة إلى اليابانيين فلم يكن الزمن المُقدَّر بالساعات؛ وإلّا فإنّ العزلة لم يكن لها أن تُحقِّق كلّ هذه الإنجازات. ولا يعني الوقت أن يعيش الإنسان في الماضي فيعكسه على حياته؛ وإنّما يعني أنّ الأحوال في طريقها إلى التغيّر، والماضي ليس كالحاضر، وأفعال الأمم لا تستمر على نسق واحد وزمن واحد، وإنّما هناك اختلاف في الأزمنة. وهذا الاختلاف هو الذي يصنع الحدث الإنمائي المختلف نتيجة الوعي بجريان الوقت من مرحلة بطيئة إلى أخرى سريعة؛ إذ التحكّم في هذا الجريان واستثماره يكون بجري الإنسان واستمراره، وفي هذا إضافة إلى الجهد، وإمساك للوقت. إنّ الوقت يفيد من الماضي، ولكنّه يتقدّم بالحاضر، ويُؤسِّس للمستقبل؛ فكلّ المستقبلات الإنمائية هي وليدة الوقت. والزمن ينقسم إلى ماضٍ، وحاضرٍ، ومستقبلٍ، وقيمة الزمن تكمن في زيادته. فماذا أضاف الإنسان إلى الماضي والحاضر والمستقبل؟ إنّ الماضي لا يرجع فاعلاً إلّا إذا كانت فيه إضافة مضيئة

[٣٧] جودت، سعيد. **الإنسان كَلّاً وعدلاً**، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩٨م، ص١٩.

يمنحها الحاضر بوقته المضاعف، والحاضر لا يكون نافعاً إلّا إذا كان وقته المرئي إنمائياً يسع المستقبل غير المنظور.

وتكمن أهمية استثمار الوقت في اليابان في أنّه نقلها من ضيق الجغرافيا إلى وسع التاريخ، ومن ضيق المكان إلى وسع الزمن، ومن ضيق الزراعة إلى وسع التكنولوجيا، ومن ضيق الفرد إلى وسع الجماعة، ومن ضيق الفوضى إلى سعة العزلة، ومن سعة العزلة إلى وسع الانفتاح ورحابة الانتشار. إنّ سرّ تفوّق اليابان أنّها علت على المكان بالزمن، فهي تكاد تختلف تماماً عن الآخرين لأنّها في العزلة انشغلت بالوقت فلم ينشغل بها الآخرون حتى خرجت إليهم أمّةً متفوّقةً قابلةً لتبادل علومها ومعارفها مع غيرها من غير خجل. وعن السفينة البخارية التي أجرى عليها اليابانيون الممارسة في ظرف خمس سنوات بعد سبع سنوات من رؤيتها كما أسلفنا القول، وربح سنتين أو أكثر، يقول فوكوزاوا: "فيما أتأمل كل شعوب الشرق الأخرى، على نحو ما هي عليه اليوم، يساورني الشعور بالاقتناع بأنه ليست هناك أمة أخرى لديها المقدرة أو الشجاعة على الإبحار بسفينة بخارية عبر المحيط الهادئ بعد فترة خمس سنوات من الخبرة والهندسة. ولا يقتصر على الشرق بروز هذا الإنجاز كعمل لم يسبق من أعمال المهرة والجرأة. وحتى إمبراطور روسيا بطرس الأكبر، الذي مضى إلى هولندا لدراسة الملاحة، لم يستطع بكل إنجازاته أن يصل إلى ما يعادل هذا الإنجاز الذي حققه اليابانيون، في هذه المغامرة الكبرى."[٣٨]

طبعاً أولى اليابانيون الوقت جُلّ اهتمامهم، فهم دائماً يتعاملون مع المسائل بوصفها معقَّدة تحتاج إلى مزيد من الوقت المضاعف لفهمها، ونجد الياباني يجهد نفسه بمزيد من الوقت ليصير الشيء متلاحماً معه مطواعاً له؛ إذ إنّ "الأسلوب الياباني أواسي (المتناغم-الملائم) يرفض فكرة أن الإنسان بإمكانه معالجة البيئة والتأثير فيها ويفترض بدلاً من ذلك أن يوفق نفسه معها."[٣٩]

وقد تعلّم اليابانيون أيضاً كيف يفيدون من الوقت، وكيف ينتجون أكثر، ويوفّرون لأسرهم الأمن من الخوف الذي يأتيهم من السيد الإقطاعي، والإطعام من جوع إذا

[٣٨] يوكيتشي، **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، مرجع سابق، ص١٤٥.

[٣٩] رينبست، ريتشارد إي. **جغرافية الفكر: كيف يفكر الغربيون والآسيويون على نحو مختلف.. ولماذا؟** ترجمة: شوقي جلال، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٥م، ص٨٤.

أصابهم الطرد. فالإقطاعيون كانوا يحرصون على زيادة الفائض الإنتاجي بزيادة الوقت، والفلاحون كانوا يفيدون من الوقت لمضاعفة حصّتهم التي في الغالب كانوا لا يأخذون منها إلّا القليل. وكذلك العزلة أفادت من الوقت، وإلّا ما كان لها أن تستمر قرنين ونصف، وتخرج بإنجازات فيها كثير من المعجزات التي لا يمكن تفسيرها إلّا بمضاعفة الوقت الناجم عن مضاعفة الجهد؛ حيث بذل الجهد هو الذي يجعل الوقت مطواعاً للإنسان الذي إذا تعوَّد على نمطٍ من العيش معيّنٍ لا يرى في مضاعفة الوقت أيّة مشقة. فالذي يحترم الوقت يستمر؛ لأنّ الوقت استمرار لا ينكفئ، والاستمرار يتقدّم بالوقت، ويكافئ المستقبل. وهو يكون كريماً عندما يكون الإنسان معطاءً ببذل كثير من الجهد.

إنّ المسألة هي مسألة تعوُّد على الشيء، وما الوقت الإضافي إلّا عادة متكرّرة تصبح مع الوقت المتراكم جزءاً من ثقافة أمّة. فالتخطيط الإنمائي لا يمكن أن يؤتي ثمرته إلّا إذا كان قد خرج من هذه الثقافة التي تَعُدّ الوقت أحد أركانها الحضارية. فكثير من الأعمال فشلت لأنّها خرجت من ثقافة لم يكن الوقت حاضراً فيها على الدوام. وما اعتماد توكوغاوا على الكفايات في الإدارة إلّا لأنّها كانت متشبّعةً بثقافة يمتزج فيها التخطيط والوقت في تناغم فريد.

إنّ الذين مارسوا أعمالهم وَفق أخلاق معيّنة حافظوا على الوقت وضاعفوه. وقد ساعدت القوانين الكونفوشيوسية نظام توكوغاوا على اعتبار احترام الوقت والحرص عليه ببذل الجهد قانوناً أخلاقياً، يجلب للإنسان الاحترام، ويُعزِّز مكانته الاجتماعية كما هي حال الحرفيين والتجار الذين لم ينشغلوا بمرتبتهم الوضيعة على حساب الوقت الذي كان سبباً في تراكم ثروتهم، بينما هم أصحاب المراتب الأخيرة في الهرم الإقطاعي. ومن ثَمّ جاءت العزلة لخدمة اليابان، إلى حدّ أنّها اهتدت إلى القوانين الكونفوشيوسية، وراهنت عليها في حفظ الأمن الذي استمر طويلاً، فوضعت اليابان على عتبة اللاعبين الاقتصاديين الكبار؛ ذلك أنّ القوانين الكونفوشيوسية تُشجِّع احترام الوقت واستثماره، وبذل الجهد، وتحقيق الانسجام، حيث كانت محل إعجاب روّاد التنوير الأوروبي من أمثال فولتير الرائد الفرنسي لنزعة حب الصين، الذي عاش في الفترة التي كانت فيها اليابان تتنوَّر في عزلتها. "إن الكونفوشيوسية نجحت في تهيئة أساس لنظام أخلاقي واجتماعي، وهو النظام الذي

بدا أكثر فعالية وتأثيراً من نظيره في أوربا."[٤٠] فهل كان فولتير يدري أنّ الكونفوشيوسية أمكنها أن تُسهِم في التنوير داخل نظام إقطاعي مغلق؟

نعتقد أنّ هذا القمع لم يمنع اليابانيين من تحصيل التنمية، ولكنّه كان عمراناً بدوياً؛ لأنّ توكوغاوا تعامل مع نصوص الحضارة الصينية على مستوى الكتابة والإضافة، وبدأت هذه البداوة تخبو إلى حدّ ما مع تقدّم العزلة نحو اجتراح علاقات محتشمة مع الغرب المتحضِّر (١٨٥٩م)، وكلّ ذلك حدث قبل عقد من مقدم الميجي (١٨٦٨م).

ثانياً: دينامية التنوير في عهد الميجي (التنمية المتحضِّرة)

قد يجادل أحدهم ممّن في عقله اعتراض على وجود حضارة يابانية، إلّا أنّ الثقافة اليابانية ذات عراقة تاريخية وأناقة حضارية، ترجع إلى ما قبل عصر (نارا) عصر المؤسسات، وهي ثقافة اقتدرت على استيعاب نصوص الحضارات الكبرى، والإفادة منها أكثر ممّا أفاد الصينيون من نصوصهم مباشرةً، ولا سيّما أنّه قد "درج الناس داخل ما يعرف اليوم بالصين على استخدام عبارة الحضارة منذ ما لا يقل عن ألفي سنة."[٤١] وقد حُقَّ للثقافة اليابانية أن تستوعب خطابات الحضارة الغربية؛ لأنّها ثقافة متعلِّمة انداحت حضارياً؛ إذ "ليست الثقافة سوى تعلّم الحضارة."[٤٢] ووظيفة هذه الثقافة أنّها "تخلق علاقات بيننا وبين النظام الإنساني."[٤٣] لقد أبدع اليابانيون داخل هذا النظام، واستعلوا في تعلّم الحضارة من داخل التراث الصيني، ورسخوا في العلم والمعرفة، فبات الفعل الحضاري فعلاً لصيقاً بهم.

وقد شكَّلت العزلة ثقافة اليابان المتناغمة، ثمّ قطفت اليابان –ما بعد العزلة– نتائج الحضارة عندما ترجمت الثقافة الحضارية إلى علم؛ إذ "ليس العلم سوى بعض نتائج

---

[٤٠] كلارك، جي جي. **التنوير الآتي من الشرق**، ترجمة: شوقي جلال، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٧م، ص٧٨.

[٤١] كاتزنشتاين، **الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية**، مرجع سابق، ص١٥٣.

[٤٢] ابن نبي، **ميلاد مجتمع**، مرجع سابق، ص٩٦.

[٤٣] المرجع السابق، ص٩٦.

الحضارة."[٤٤] فمّن يتعلّم الحضارة ويكتسب ثقافةً متحضِّرةً تحصل له العلوم؛ إذ إنّ العلم "يخلق علاقات بيننا وبين الأشياء."[٤٥]

وبالرغم من مقدّم الانفتاح، فقد ظلّت وظيفة الثقافة اليابانية أن تتعلّم من الآخرين، وتحافظ على ما تعلّمته سابقاً؛ لأنّ الفعل الحضاري يقوم على العودة إلى الأصل، وبدء الجديد بتعبير كونفوشيوس، أو العودة إلى الأصل بطريق الأمام.

ويُعَدّ ميجي الذي حكم اليابان في الفترة الممتدة بين عامي (١٨٦٨م-١٩١٢م) من المتشيعين للتنوير. فقد استقرّ لديه أنّ نسف الأصل يعني التوقّف في منتصف الطريق؛ لأنّ الإنسان الخارج من العزلة كان فيه شيء كثير من الأصل، حيث المحافظة عليه تُعَدّ عملاً حضارياً، لا سيّما إذا كان "الأصل هو موطن الحقيقة ومستودعها."[٤٦] فحقيقة الخطابات الحضارية لا تتكشّفها إلّا ثقافات الأصول.

إنّ قطيعة ميجي مع توكوغاوا كانت قطيعةً مع الفترة، لا مع الثمرة. وإذا كان لكلّ فترة سلبياتها، فإنّ لكلّ ثمرة إيجابياتها، ولولا الفترة ما حصلت الثمرة. لذا، لم يُعمِل ميجي قطيعةً مع الفترة لتمزيق الثمرة. هذه الثمرة التي كان اليابانيون بعذاباتهم سبباً في نضجها وإيصالها إلى أجيال تعيش مُدَداً أخرى تستحضر فيها الخصوصيات المشتركة.

فلو أنّ اليابان تخلّت عن الخصوصيات، وأعملت قطيعةً مع الأصل، بحجة أنّه من مخلّفات فترة تختلف معها، ما كان لها أن تدخل العصر بهذا الأفق الحضاري؛ ذلك أنّ الثقافة بوصفها مستودعاً للأصول تأخذ دور المنقذ الحضاري كلّما حدث تغيير في الأفق، حيث تعكس الثقافة بُعْدها الحضاري على مَن تفيد منهم، فتحصل لها الإفادة العلمية من غير أن تنزف كثيراً من قيمها.

إنّ أهم ما ابتذرته العزلة وأثمرته ليس إنجازاتها الكبرى وحسب، بل بروز معالم في طريق الثقافة المتحضِّرة. وأهم ما استحصده الإقطاع واستخلصه ليس فائض الأرض، وإنّما إيجاد

---

[٤٤] المرجع السابق، ص٩٦.

[٤٥] المرجع السابق، ص٩٦.

[٤٦] فوكو، **جنيالوجيا المعرفة**، مرجع سابق، ص٥١.

تكتلات تجارية جديدة. فليس بدعاً من القول إنّ هذه الإرهاصات كانت منطلقات اقتصادية وتقنية أسّست لمرحلة جديدة في حياة اليابان الأكثر انفتاحاً بالحجم الذي كانت فيه أكثر عزلةً.

إنّ القاسم المشترك بين العزلة والانفتاح هو العناصر الحضارية (الإنسان، والأرض، والوقت)، إلّا أنّ الفارق بينهما هو اتصاف هذه العناصر بشيء من البداوة في فترة العزلة، فقد صمَّمت عمراناً بدوياً يختلف عمّا كان مبسوطاً لدى دول كانت مصحوبةً بآليات ديمقراطية متحضِّرة. وهذه الحرية التي ترعاها دولة حفظ الحقوق هي الشيء الحضاري الغائب في العناصر الحضارية زمن العزلة؛ لأنّ الدولة–الحرية كانت غائبةً فلم تحصل التنمية–الحرية؛ إذ "تستلزم التنمية إزالة جميع المصادر الرئيسية لافتقاد الحريات: الفقر والطغيان، وشح الفرص الاقتصادية، وكذا الحرمان الاجتماعي المنظم وإهمال المرافق والتسهيلات العامّة، وكذا عدم التسامح أو الغلو في حالات القمع."[٤٧] والراجح أنّ الإنسان المعتزل كان متحضِّراً، ولكنّ الإقطاع بدا بدوياً. ومن ثَمّ فإنّ الدولة–الإنسان هي الحلقة المفقودة في المعادلة الحضارية التي بجست تنميةً لم تكن متحضِّرةً؛ وإلا، لماذا القابلية للانفتاح الذي لم يكن مردّه العجز أمام الآخر، وإنّما كانت تستدعيه الحاجة إلى تحصيل إنجاز يعلو على الآخر؟

لقد وقف التنوير على الإجابة عن سؤال: هل العناصر الحضارية (الإنسان، والأرض، والوقت) كافية لإنجاح الانفتاح واللحاق بالمتفتحين؟ وإلّا، لماذا القابلية للخروج من العزلة التي هيَّأت إنساناً يحسن أن يعيش من غير عزلة أيضاً؟

لقد استخلص ميجي حقيقةً مفادها أنّ الإقطاع لا يصنع الدولة–الحرية، وإنّما يقف عند إنسان يقتطع منه جهده ووقته، فإذا لزم هذا الإنسان أن يطالب بحقوقه لا يجد دولةً تعينه. فالحقوق مقتطعة؛ لأنّ الدولة–الإنسان مجتزأة، وغير مرئية لدى العامّة. أمّا المرئي فهو القمع الذي تهابه الحقوق.

---

[٤٧] صن، أمارتيا. **التنمية حرية: مؤسسات حرة وإنسان متحرر من الجهل والمرض والفقر**، ترجمة: شوقي جلال، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٤م، ص١٦.

لقد وجب على ميجي، إذن، إعادة الحقوق؛ فكيف تُسترجَع الحقوق والناس ما يزالون مأخوذين برهاب التراتب الكونفوشيوسي (محاربون، ففلاحون، فحرفيون، فتجّار)؟ في حضرة هذا الهرم التراتبي وقف اليابانيون عاجزين عن العطاء الغزير، فلا تُستثمَر الأرض بكثرة، ولا يُستغَل الوقت بوفرة؛ إذ ظهر أنّ العناصر الحضارية التي أنقذت العزلة لم تكن كافيةً لمواجهة عصر الحريات الذي كان نجاحه يتطلّب إضافةً نوعيةً جديدةً إلى المعادلة، حيث إضافة الدولة بوصفها شريكاً حضارياً يخلع على المعادلة الحضارية المُختزَلة بُعْداً تركيبياً، لا سيّما أنّ هذا التركيب يَعِد بالتراحم الذي هو أصل الأخلاق؛ إذ يؤكّد فوجيوارا ماساهيكو أنّ "لدى اليابان شيئاً تقدمه إلى العالم. فخلافاً لطغيان اقتصادات الليبرالية– الجديدة أو الإلحاح على أنماط معينة من المؤسسات الديموقراطية، اللذين تجسدهما الولايات المتحدة، تقوم الثقافة اليابانية بعرض نوع من اللطف الخيِّر، الرحب، البعيد عن إصدار الأحكام: نوع من احترام العاطفة الإنسانية وورع الألفة المشاعية، تلك القيم التي هي كونية وشاملة مثل الحرية والديمقراطية اللتين ترفع الولايات المتحدة رايتهما تماماً."[٤٨]

إنّ مشاركة نخبة المعابد في الانفتاح وعودة الشرعية إلى الإمبراطور، أبانت عن مدى اختزالية المعادلة الحضارية –على الأقل– في عنصرها الرئيس الذي هو الإنسان. وقد اضطلعت النخبة بهذه المهمة التاريخية، فكان الحوار الحضاري متبادلاً بين النخبة والميجي حول مستقبل الإنسان، أو كيف يتحوَّل التراتب الكونفوشيوسي إلى تراكب يُعزِّز من مكانة الإنسان، فقد "رفع فوكوزاوا شعار (الحضارة والتنوير) و(أمة غنية وجيش قوي)"[٤٩] لإنجاح الحوار الذي تفتَّق تواصلاً حضارياً لم يقف عند العناصر التراتبية أو إعادة ترتيبها، بل وجب إضافة الإمبراطور لاعباً أساسياً فيها؛ إذ إنّ تحصيل التركيب من داخل الترتيب يستدعي إضافة الميجي نفسه إلى هذا التركيب، فيكون على رأس الترتيب وأسّه، فهو العصبية الغالبة التي أمكنها أن تلغي التصنيف التاريخي، وتستجيب لخلطة ابن خلدون: "إن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلاً بل لا بد من أن تكون واحدة منها

[٤٨] ليهني، ديفيد. **مبادرة الساموراي إلى نجدة هنتنغتون: اليابان عاكفة على تأمل أدوارها**، ضمن: كاتزنشتاين، **الحضارات في السياسة العالمية**، مرجع سابق، ص٢١٢.

[49] Hopper, Helen M. *Fukazawa Yukichi: From Samurai to Capitalist*, New York: Pearson Education, Inc, 2005, p 60.

هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيِّرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب، وهي موجودة في ضمنها وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورئاسة."[٥٠]

والسلطان هو إنسان يُفترَض أن يكون حاضراً -اسماً وفعلاً- في المعادلة الحضارية، فهو عنصرها الرئيس الذي تتدرّج تحته العناصر الإنسانية الأخرى، فتستمد منه المدد فيكثر العدد، ومثل هذا الحضور أمكنه الحفاظ على تماسك عناصر المعادلة إذا حاولت التطورات المستجدة التي تُناصِب الدولة العداء استبعادها لحساب السوق ومجتمعات الاستهلاك. فالسلطان هو الذي يحمي عناصره الإنسانية من شطط السوق وقلق الاستهلاك. فعلى نحو ما احتنكه ابن مسكويه، فإنّه "يجب أن تكون نسبة الملك إلى رعيته: نسبة أبوية، ونسبة رعيته إليه: نسبة بنوية، ونسبة الرعية بعضهم إلى بعض: نسبة أخوية؛ حتى تكون السياسات محفوظة على شرائطها الصحيحة."[٥١]

وعلى الرغم من إقرارنا بأنّ شبكة العلاقات الاجتماعية قاربت على الكمال في أواخر فترة العزلة التي كانت قادرةً على منحها حياةً أخرى لولا أن عاجلها الانفتاح؛ إذ أسهمت القوانين الكونفوشيوسية في ترجمة قانون الولاء والطاعة إلى الاستقرار السياسي، وقانون الإخلاص وبذل الجهد إلى الاستمرار الاقتصادي، وقانون التعاون إلى الاستثمار الاجتماعي. وبالرغم من كلّ هذه الإنجازات التاريخية، فقد حدث ذلك في غياب الدولة—الإنسان، حيث أسهمت الثقافة اليابانية في إحداث التكامل الاجتماعي؛ فالإنسان الياباني عرف كيف يعيش في جماعة، فتفتَّقت تنمية هي نفسها الدولة-التنمية؛ إذ إنّ التنمية هي مادة الدولة كما يعتقد ابن خلدون، و"الحضارة وعملية تشكل الدولة كانتا متشابكتين في آسيا الشرقية."[٥٢] وبذا، فإنّ الحرص على الوقت هو حرص على بقاء الدولة وزيادة في عطاء الأرض، حيث الرعايا تبَع للدولة، فتحصل الدولة—الإنسان التي تُمهِّد للدولة-التنمية، وعلى نحو ما جرى في فترة التنوير التأسيسية.

---

[٥٠] ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج١، ص١٦٦.

[٥١] ابن مسكويه. **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، تحقيق: ابن الخطيب، القاهرة: المطبعة المصرية ومكتبتها، ط١، د.ت، ص١٥٩.

[٥٢] كاتزنشتاين، **الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية**، مرجع سابق، ص١٥٢.

١. تأسيس الدولة–الإنسان:

لقد تأسّست الدولة–الإنسان وَفق مراحل مدروسة، أبرزها:

أ. استعادة شرعية الإمبراطور واعتباره إنساناً فاعلاً ومُنوِّراً، مع الاحتفاظ برمزيته الإلهية التي ترجع إلى مرحلة جيمو المتداولة في الذاكرة التاريخية، وهذا باتفاق اليابانيين أنفسهم، وليس أمراً مفروضاً أو مسلَّطاً، ومن ثَمّ كانت هذه الرجعة سبباً في تأسيس الدولة–الإنسان؛ لأنّها تتعاون مع الإنسان نفسه، وتضيف إليه. يقول ابن خلدون: "اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحة وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية."[٥٣]

ب. القضاء التدريجي على العصبيات، وتحويل الشوغون القائد العام للجيش الإمبراطوري في عصر توكوغاوا، والدايميو الحاكم الإقطاعي التابع للشوغون، والساموراي المحاربين الإداريين القدامى إلى مواطنين عاديين مع تقديم تعويضات مالية لهم عن هذا التنازل التاريخي. لقد جرَّد ميجي الساموراي من سيوفهم الممتشقة، وأسَّس جيشاً عصرياً. وبهذا عمد إلى إعادة النظر في هرم التراتب الكونفوشيوسي.

ت. إعادة الاعتبار إلى النخبة، ومنحها فرص استكشاف العالم والمشاركة في صنع القرارات الاستراتيجية، خاصّةً أنّ أول محاولة لرؤية الغرب منذ إنشاء الإمبراطورية اليابانية كانت سنة ١٨٥٩م؛ إذ أرسل ميجي مجموعةً من النخبة للاطلاع على أحوال الحضارة في أوروبا وأمريكا.

ث. تحسين أوضاع الفلاحين، وإعادة حقوقهم بتعويضات مالية، ودمج أبنائهم في المنظومة التعليمية، فقد كان أبناء الفلاحيين –بحسب قانون التوارث غير العادل– يحلّون محل آبائهم فلا يغادرونها أبداً. وما كان من الدولة–الإنسان إلّا أن أعادت الاعتبار إلى ما

[٥٣] ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج١، ص١٨٨.

نسبته ٩٠% من السكان الفلاحين؛ إذ "تعمل الدولة–الأمة في جوهرها على تزويد أفرادها أي مواطنيها وقومها بالمتطلبات الأساسية التي تؤكد لهم هويتهم المكانية–الزمانية."[٥٤]

ج. دمج الحرفيين والتجار في المنظومة الاقتصادية، خاصّةً بعد ما وضعت النخبة المبتعثة إلى الغرب تقريراً أمام الإمبراطور يفيد أنّ الحرفيين والتجار يتبوأون مكانةً مميّزةً؛ نظراً إلى ما يقدّمونه للتنمية، فأساس الاقتصاد هو المال في القاموس الإنمائي الغربي.

٢. تأسيس الدولة–التنمية:

أفرزت الدولةُ–الإنسانُ الدولةَ–التنميةَ، وهذه أبرز إنجازاتها:

أ. هزيمة اليابان للصين؛ فالانتصار على الآخر تنمية. يقول فوكوزاوا: "إنني أرى البلاد قد قطعت شوطاً طيباً على طريق التقدم. ومن النتائج الملموسة تلك التي قدر لها أن تبدو واضحة للعيان قبل سنوات قلائل في حربنا الظافرة مع الصين، والتي كانت نتيجة التعاون الكامل بين الحكومة والشعب."[٥٥] لقد جمع ميجي بين "مباراة الأرض" التي اعتمدها توكوغاوا، وأفاد من عوائدها في تحصيل الاستقرار، بحيث تبقى الأرض تحافظ على وحدتها، وفي هذا توسعة لها داخلياً، و"مباراة الأرض–الثروة" التي ترى أنّ الدولة–التنمية تشترط حصول صناعة وتجارة مزدهرتين، وذلك بالبحث عن أراضٍ خارجية أخرى تُعزِّز فرص التنمية. وبالرغم من تضرّر الدول الآسيوية المجاورة من "مباراة الأرض" الخارجية، إلّا أنّها أفادت من "مباراة الثروة" في تعزيز اقتصادها، وهذا أيضاً ما "كان إمبراطور اليابان ميجي يجاهر به، وهو الحصول على (القوة المالية والعسكرية). وهذا ما يوضح سبب البقاء القوي لعناصر مباراة الأرض"[٥٦] على الأقل في الداخل، أو كما يعتقد ابن خلدون بأنّ الجند والمال أساس الملك. فالعزلة قد هيّأت للاكتفاء الذاتي، ولكنّ دولة الميجي منحت هذا

---

[٥٤] تيلور، بيتر. وفلنث، كولن. **الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر: الاقتصاد العالمي، الدولة القومية، المحليات**، ترجمة: عبد السلام رضوان، وإسحق عبيد، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط١، ٢٠٠٢م، ج٢، ص٧٥.

[٥٥] يوكيتشي، **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، مرجع سابق، ص٣٧٦–٣٧٧.

[٥٦] ماتسوموتو، كينيشي. "الهوية القومية اليابانية والبيت الآسيوي المشترك"، **مجلة دراسات يابانية وشرقية**، جامعة القاهرة، عدد٤، يوليو ٢٠١٠م، ص٩٣.

الاكتفاء بُعْداً عالمياً جعل الإنسانية تفيد منه؛ ذلك أنّ "ميجي أسس دولة قوية عززتها ثروة البلاد والقوة العسكرية إلى جانب إدخال إصلاحات سياسية واجتماعية."[٥٧]

ب. إسهام الساموراي في تطوير التعليم؛ نظراً إلى امتلاكهم الخبرة الإدارية والصرامة العملية، خاصّةً أنّ ٩٠% من السكان كانوا فلاحين غير مؤهلين إدارياً ومعرفياً. وقد استطاع الساموراي الذين بلغت نسبتهم ٥% التكيف مع وضعهم الجديد، فلم ينتقموا من الدولة التي جرَّدتهم من امتيازاتهم، وإنِ استعادوها على نحوٍ حضاري تجاوب مع مرحلة التغيير والبناء، مع الحفاظ على الصرامة الحربية التي خلقت جيلاً متعلِّماً صارماً. فما كاد القرن التاسع عشر الميلادي ينقضي حتى كانت اليابان قد قضت على الأمية، وفي هذا استثمار كبير للوقت؛ فالوقت الضائع لا يرجع إلّا بالوقت الإضافي.

ت. إفادة النخبة من الدولة–الإنسان، ثمّ إفادة الدولة–التنمية منها؛ فقد كان وفاء النخبة اليابانية في صالح الدولة–التنمية. لنفترض أنّ النخبة المبتعثة لم ترجع إلى اليابان، وآثرت القعود، فماذا كان سيحدث للدولة–التنمية؟ هل كان لنا من دونهم أن نرى اليابان على ما هي عليه الآن؟ لقد لامست النخبة النوايا الحسنة للدولة–الإنسان، فلم يخالجها الشكوك في الدولة–التنمية، ولم تغدر، ولم تغادر. فها هو فوكوزاوا –الذي تلقى عرضاً مغرياً للعيش في روسيا، حيث كان مبعوثاً ومفاوضاً هناك– يُصوِّر مدى إفادة الدولة–التنمية من الدولة–الإنسان، بقوله: "لقد أرسيت سياستها بشكل قاطع ويجري تنفيذها وفق أفكاري على وجه الدقة."[٥٨] فالإمبراطور المُنوِّر كان بحاجة إلى نور النخبة، وما أفادته هذه النخبة من حداثة الغرب، في أنّ الحرية هي نواة التنوير الأمريكي، والعقلانية هي نواة التنوير الفرنسي، والفضيلة هي نواة التنوير البريطاني؛ إذ لاحظت النخبة اليابانية أنّ هذه القيم الإنسانية قد توافرت في الدولة–الإنسان فأشَّرت للدولة—التنمية. وإذا كان فوكوزاوا يرى أنّ الحضارة هي التقدّم والتميّز يسيران جنباً إلى جنب، فمن "الحاسم أن اليابان المتحضرة السائرة في طريق الحضارة لم تكن في نظر فوكوزاوا، تعني بناء أفراد وفقا لمبادئ التنوير الآتية

[57] Hayashi, Takeshi. *The Japanese Experience in Technology: From Transfer to Self-Reliance*, Tokyo: United Nation University Press, 1990, p40.

[٥٨] يوكيتشي، **سيرة فوكوزاوا يوكيتشي**، مرجع سابق، ص٣٥١.

من الغرب فقط، بل وبناء (مواطن قومي–وطني) أمة ذات إرادة جماعية قادرة على دعم دولة الميجي."[٥٩]

ث. تطور القطاعات الإنمائية، مُحقِّقةً الاكتفاء الذاتي، وتنوُّع مصادر التراب ببروز العائلة التجارية المعروفة بالزايباتسو، فمع "بدء فترة ميجي حدث التعاون الفعلي بين التجمعات الزراعية والجمعيات الصناعية، فقبل هذه الفترة كانت الجمعيات الصناعية تقتصر في نشاطها على تقديم المشورة في الجوانب التقنية للإنتاج الزراعي؛ أما في فترة ميجي فقد شاركت الجمعيات الصناعية في الأنشطة الاقتصادية للتسويق، والشراء والبيع، والائتمان."[٦٠] أمّا الفلاحون الذين انتقلوا إلى المدن فقد أسهموا في قيام الثورة الصناعية، وتنويع الأسواق.

وعموماً، فإنّ "حرية دخول السوق يمكن أن تكون هي ذاتها مساهمة مهمة للتنمية."[٦١] وإنّ ما يعنينا هو أنّ النخبة اليابانية التي هندست هذا التحوّل الإنمائي في فترة وجيزة كانت راضيةً عمّا آل إليه وضع اليابان الجديد في ظلّ دخول الدولة بوصفها لاعباً جديداً وأساسياً في المعادلة الحضارية. يقول فوكوزاو وهو يتحسَّر ويستدمع على أصدقائه الذين ماتوا في وقت أسبق ممّا ينبغي، فلم يُقدَّر لهم أن يحظوا بالبهجة الرائعة لما حقّقته الدولة–التنمية: "الحاضر، في نهاية المطاف، هو نتيجة الماضي. وهذه الحالة المجيدة لبلادنا لا يمكن إلا أن تكون ثمرة الميراث الطيب الذي ورثناه عن أسلافنا، فنحن المحظوظون الذين يعيشون اليوم ليستمتعوا بهذا الإرث الرائع. ومع ذلك فإنني أحس لو أن طموحي الثاني والأعظم قد تم تحقيقه، لأن كل شيء تطلعت إليه وابتهلت من أجله قد تم تحقيقه من خلال كرم السماء وفضائل هؤلاء الأسلاف. وعندما أتطلع إلى الوراء لا أجد ما أشكو منه، لا شيء إلا الرضا والابتهاج التّامَين."[٦٢]

---

[٥٩] كاتزنشتاين، **الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية**، مرجع سابق، ص١٩٧.

[60] Okazaki, Tetsuji and Okuno-Fujiwara, Masahiro (eds.). *The Japanese Economic System and its Historical Origin*, Oxford: Oxford University press, 1999, p245.

[٦١] صن، **التنمية حرية: مؤسسات حرة وإنسان متحرر من الجهل والمرض والفقر**، مرجع سابق، ص١٩.

[٦٢] يوكيتشي، **سيرة فوكوزوا يوكيتشي**، مرجع سابق، ص٣٧٧.

خلاصة القول إنّ العناصر الحضارية المركّبة والمستدامة (الدولة، الإنسان، الأرض، الوقت)، تتقصَّد تحصيل تنمية مركّبة؛ لأنّ الدولة دولتان. "إن السلطة في الدولة سلطتان: سلطة الدولة، وهي سلطة طبيعية أصلية، وسلطة الحاكم، وهي سلطة تفويضية مستمدة من سلطة الدولة وراجعة إليها."[٦٣] وإذا انهارت واحدة تخلَّفت الأخرى:

دولة معنوية قائمة بذاتها تَحثّ على الواجب، وتعيد الحقوق، وتحفظ الإنسان والأرض من شطط العولمة التي تتغوَّل في غياب الدولة–التنمية كونها في سباق زمني لنسف الخصوصيات.

ودولة مادية هي نفسها الإنسان والأرض والوقت؛ "إذ تبقى الدولة أساس التعاقد الاجتماعي والاستقرار الوطني والعالمي، على الرغم من موجات العولمة المتلاحقة في زماننا."[٦٤] ومن ثَمّ نجزم أنّ إضافة الدولة هي عملية مشروطة لتحصيل تنمية مستدامة على النحو الآتي:

الحضارة = دولـــــــــــــة + إنسان+أرض+وقت

الحضارة= دولـــــــة معنوية + دولـــــــة مادية

وبذا، فإنّ التنمية المتحضِّرة تحصل بحصول الدولة–الإنسان الرشيدة التي تتصدَّر العناصر الأخرى المفيدة.

---

[٦٣] نصار، ناصيف. **منطق السلطة: مدخل إلى فلسفة الأمر**، بيروت: دار أمواج، ط١، ١٩٩٥م، ص٨٨.

[٦٤] مجاهد، عادل وآخرون. **أزمة الدولة في الوطن العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١١م، ص٥٣.

ثالثاً: مسالك الإفادة من عناصر معادلة الحضارة اليابانية

١. مقدمة واستهلال:

إنّ مسالك استخلاص الدروس المستفادة من النماذج الإنمائية الناجحة، تأتي غالباً مُشوَّهة في تطبيقاتها، ومُتعرِّجة في ترسيماتها؛ لأنّ مساحة النجاح مساحة واسعة الأرجاء، ومترامية الأطراف. وأنْ نأخذ بجانب واحد فقط يعني أنّنا سنفتقر إلى الانتفاع من الجانب الآخر؛ فالنفع لا نعرف موضعَه، ولا يمكن أن نهتدي إليه عشوائياً بشطحة إيديولوجية، أو ضربة اختزالية. والواقع أنّ التركيز على الأطراف هو انتقاص للمركز، والاهتمام بالمركز هو إهمال للأطراف.

توجد نماذج إنمائية ناجحة وصلتنا بما استخلصه أسلافنا من دروسها وعِبرها، إلّا أنّها جاءت تسعى على استحياء. ونعتقد أنّ مشروع الإفادة لم يكن مشروعاً مركّباً؛ لأنّ النماذج الإنمائية الناجحة هي نماذج مركّبة. فالمركّب لا يُختزل، وما هو مُختزَل لا يوصلنا إلى الأهداف الكبرى، ولا يُحقِّق لنا أشياءَ إنمائيةً عظيمةً؛ إنّ النجاح الإنمائي هو الابن الشرعي للتزاوج المركّب.

فهل كان هناك مشروع للاستفادة من النموذج الإنمائي الذي استخلص أسلافنا دروسه للعالم العربي الإسلامي؟ نعتقد أنّ سرَ الفشل المتكرِّر يرجع إلى أنّ النوايا العملية للاستفادة من النماذج الإنمائية العملية كانت غائبةً. زد على ذلك أنّ استدعاء النماذج الإنمائية لم يكن بدافع التعلّم من الآخر، فموضوع استخلاص الدروس والعبر لم يكن له النصيب الأوفر في التعامل مع هذه النماذج؛ لأنّ إثارة موضوع الدروس المستفادة كانت ستضع البُعْد الحضاري والإنمائي لهذه النماذج الناجحة على محكّ السؤال الآتي: كيف نجحت هذه النماذج في بيئتها التي هي خلاصة تنميتها؟ إنّ إثارة مثل هذا السؤال كانت ستثير سؤالاً آخر، هو: هل يمكن تحقيق هذا النجاح الإنمائي في ظلّ غياب احترام الإنسان؟

ولا شكّ في أنّ مثل هذه النماذج الإنمائية الناجحة لم تصنعها الثروات الجاهزة، بل هي ميزة من صنع الإنسان الحرّ المسؤول، ولكنّ العالم العربي الإسلامي تعامل مع هذه

النماذج من منظور اقتصادي مادي جاهز، يتأفَّف من الاستفادة الحضارية المكلِّفة لمعنوياته ومجهوداته. لقد فضَّل طريقة إبرام عقود البيع والشراء كلّما همَّ بالاستفادة: لنا أموالنا، ومن حقّنا أن نشتري ما نشاء، وليس لنا إنساننا، ومن واجبنا أن نصنع ما نشاء. ما يُشترى بالمال يمكن الاستعاضة عنه إذا ظهر ما هو أفضل منه، والأرض العربية الإسلامية مليئة بمثل هذه النفايات، لكنّ ما يُنجَز بوساطة الإنسان لا يمكن التفريط فيه، والنماذج الإنمائية الناجحة زاخرة بمثل هذه العطاءات. إنّ ما هو ميزة من صنع الإنسان له قابلية للاستمرار؛ لأنّ ما يُشترى بالمال لا يغادر المحلِّية، وما يُنجِزه الإنسان بنفسه أمكنه أن يطرق العالمية. إنّ الإرث البشري ليس صناعةً ماليةً عابرةً، بل صناعةً إنسانيةً دائبةً.

وإنّ استحضار البُعْد الإنمائي والحضاري في عملية الاستفادة، يغنينا عن اقتناء كلّ ما يصادفنا من نجاحات أنجزتها النماذج الإنمائية البشرية؛ فالإبحار في محيط هذه النماذج، يتطلَّب منّا إعمال النظر والإبقاء على الحذر: ماذا نأخذ؟ ماذا نترك؟ هل إذا أخذنا ولم نترك أحسنّا التركيب؟ إذا اكتفينا بما ينفع، فما الشيء الذي ينفعنا؟ كيف نعرف أنّ هذا الشيء ينفعنا ولا يضرّنا؟ نعتقد –بتواضع– أنّ الشيء الذي ينفع هو الشيء الذي لا يتغيّر، ويبقى ثابتاً كلّما تغيّرت الأجيال؛ فما يبقى هو المركّب (الأصل) عندما يجري نهر التغيير بلا توقّف. أمّا ما يذهب جفاءً فهو المنبَّت والمقطوع (المُختزَل)؛ لأنّه لا يمتلك الصفة الإنسانية والطبيعية والوجودية المقاوِمة. فهذه الصفات الثلاث هي التي لا يتغيّر جوهرها أبداً، وتبقى شاهدةً على الأجيال الغائبة.

وما يهمّنا في هذه الصفات الثلاث الثابتة والمركّبة، هو الإنسان، والطبيعة، والوجود. أو بترسيمة ابن نبي: الإنسان، والأرض، والوقت. فهذه العناصر الثلاثة هي التي تبقى، وتتجدّد باستمرار.

ولا شكَّ في أنّ ابن نبي قد وفَّر علينا جهداً عظيماً، وهو يحيلنا إلى هذه العناصر الثلاثة التي لا تحصل التنمية إلّا بها. ومن ثَمّ فإنّ عملية استخلاص الدروس نراها مفيدةً إذا عالجناها من هذه الزاوية الحضارية؛ لأنّ هذه العناصر الثلاثة هي ما يبقى لدى

المستفيد عندما يقوم بعملية تصفية بيئية للنماذج الإنمائية الناجحة. فهي عناصر كونية مشتركة؛ ذلك أنّ المستفيد له إنسانه وأرضه ووقته، مثله مثل المستفاد منه.

ونحن إذ نقف على معادلة ابن نبي الحضارية بوصفها عناصرَ معدودةً ومصفوفةً، فإنّنا نقف على الحضارة بوصفها تجسيداً واقعياً، فهل ما اختطَّه ابن نبي عن الحضارة هو نفسه الحضارة التي حصلت للمتحضِّرين؟ هل سلك كلّ متحضِّر عناصر الحضارة الثلاثة (الإنسان، والأرض، والوقت)؟ ما من شكٍّ في أنّها مسالك حضارية، وإلّا ما كانت بنية المشروع الحضاري لابن نبي؛ فإنّ كلّ إضافاته وإفاضاته تنبع من هذه العناصر وتتفجّر. ومن ثَمّ فإنّ ابن نبي كان يكتب عن نفسه، ويعكس أحوال أمّته، فجاءت أفكاره دقيقةً صادقةً. وإذ لم يكن يكتب لمجرّد المتعة، فإنّ ما كتبه هو مفيد لنا. فقد مثَّلت كتاباته مشاهدات وتجارب ووقائع، تُرجِمت إلى أفكار متناسقة، فأتت هي الأخرى أقرب إلى التجارب والإفادات؛ إنّنا نفيد من أعماله لنفهم تجارب الآخرين.

إنّ عناصر معادلة الحضارة عند ابن نبي هي تجربة تحيا داخل فكرة؛ إنّها تجربة تحتاج أن تُترجَم إلى فكرة، فتضحى الفكرة تجربةً مثلما نفعل الآن ونحن نُسقِط الفكرة على التجربة، فيتداخلان، ولا ينفصلان. إنّ هذا التداخل بين الفكرة والتجربة هو أول الإفادة من مشروع ابن نبي غير المسبوق؛ لأنّه يخلع على الفكرة صفة التجربة، ويَسِم التجربة بالفكرة. ولهذا، فإنّ مشروع ابن نبي هو مشروع مُجهَّز من صاحبه؛ إذ يمتلك روح التطبيق والقابلية للتفعيل، ومن ثَمّ فهو جاهز للتنزيل إذا وُجدت نوايا حسنة في صورة مؤسسات ومراكز صنع القرار. والسؤال الذي قد يتوارد إلى الذهن، هو: لماذا لا نفيد من التجربة اليابانية استناداً إلى مشروع ابن نبي الحضاري، قبل أن نبحث عن الإفادة المادية الجاهزة التي تكون بالنقل الحرفي، وشراء العقود، وتبادل الخبرات من غير إفادات؟ فيجاب عن المطروح بأنّ الإفادة من التجربة اليابانية تُحتِّم أولاً الإفادة من مشروع ابن نبي الحضاري.

فالإفادة المباشرة من مشروع ابن نبي الحضاري في صورة فكرة، قد يعيننا على فهم شطر كبير من التجربة اليابانية، ويساعدنا على تجاوز منتصف الطريق نحو التجربة اليابانية. فمعظم الإفادات العربية الإسلامية من تجارب الآخرين توقّفت قبل منتصف

الطريق؛ لأنّها أقلعت من غير فكرة مُجهَّزة من طرفها، وأغوتها التجربة الجاهزة لغيرها. وإذ خرجت التجارب من رحم الفكرة، فإنّ فوائدها ليست جمّةً مقارنةً بحجم الفكرة. يقول كونفوشيوس: "إذا أغوتك الفوائد الصغيرة، فإنك لن تحقق أشياء عظيمة أبدا."[٦٥]

إنّ ما نستخلصه من ابن نبي، سواء في أفكاره أو تجاربه، هو أنّ البيئة العربية الإسلامية بيئة غير إنسانية؛ ليس لأنّ الإنسان لا يشعر بوجوده وإنسانيته وحسب، بل لأنّ الفعل الحضاري (الإبداع) الذي يجعل منه إنساناً متحضِّراً غير موجود. فالأفعال الحضارية هي التي تكون سبباً في حضور الإنسان من عدمه، وهي لا تحصل إلّا باحترام الإنسان. ومن ثَمّ فإذا لم يحصل الاحترام فإنّ الفعل الحضاري لن يحصل. والخاسر الأكبر هو الإنسان، ليس في فعله الحضاري وحسب، بل في وجوده؛ إذ الوجود حرية، والتنمية حرية أيضاً.

والعالم العربي الإسلامي اليوم هو من غير إنسان؛ لأنّ هذا الإنسان يفتقر إلى الإبداع الذي يشترط هو الآخر حرية الإنسان. فالإبداع مدخل مهم من مداخل الحضارة، واللاإبداع إغراق في البداوة بصرف النظر عن مدى حضور الإنسان. وهذا هو أحد أسباب أن يكون الإنسان بحضوره المبدع العنصرَ الأولَ من عناصر الحضارة. وتأسيساً على ذلك، فإنّ العالم العربي الإسلامي بعيد كلّ البُعْد عن الإفادة الجاهزة من التجربة اليابانية؛ لأنّ الإنسان المبدع ليس هو القاسم المشترك بينهما، والهوّة تزيد عندما يفتقر هذا الإنسان إلى ضرويات الحرية. في حين كان الإنسان الياباني مبدعاً حتى وهو يقبع في البداوة؛ إذ كان فيه شيء من الحرية، وبات مبدعاً وحرّاً في آنٍ معاً وهو يخرج إلى الحضارة.

يتبيَّن ممّا سبق أنّ الحرية هي شرط الحضارة؛ لأنّ الحضارة صناعة دولة يقودها إنسان مبدع حرّ؛ فتأتي الدولة–الإنسان، والدولة–الحرية، والدولة–التنمية. أمّا الإبداع فيشترط حضور الإنسان؛ لأنّه من صنع الإنسان. ومن هنا يبرز دور الإنسان وأهمية الدولة. ومع

---

[٦٥] للاستزادة، انظر:

– يوسف، ناصر. "مسارات التحديث في الصين: الشباب الكونفوشيوسي والقيادة التقليدية والتنمية المفتوحة"، **مجلة إضافات**، بيروت، عدد٢٢، ربيع ٢٠١٣م، ص٩٢.

ذلك، فإنّ الإنسان يغرق في البداوة، وإنْ حصل له الإبداع، ولكنّ الدولة تُدخِله الحضارةَ عندما تعينه على اكتساب الحرية التي تأتي في صورة مؤسسات تمنحه المزيد من الإبداع المسؤول. فالإبداع من غير حرية قد لا يكون كافياً لإنقاذ الإنسان من البداوة، ولكنّ الحرية تُخرِج هذا الإنسان المبدع إلى الحضارة.

إنّ الدولة في التجربة اليابانية هي رديف للحرية، خلافاً لمفهوم الدولة السيئ في العالم العربي الإسلامي. وهنا أصل الاختلاف، خاصّةً أنّ الإنسان العربي المسلم غير مبدع، ما يعني أنّه ليس في بداوة، وليس في حضارة؛ لأنّه يفتقر إلى الحرية. فلا هو بدوي، ولا هو متحضِّر. وحتى يفيد من التجربة اليابانية؛ فإنّ عليه أن يمرّ بعنصري البداوة (الأرض، والوقت)، وهما أيضاً غير معروفينِ لديه. ولعل أقرب الطرائق للتعامل مع الأرض والوقت على النحو الذي جاء في التجربة اليابانية، هو ضرورة استكشافهما في الماضي المتحضِّر للإنسان العربي المسلم، كما استكشفتهما اليابان في ماضيها. ففي الماضي المتحضِّر آليات وتشريعات ومسالك للتعامل المتحضِّر مع الأرض والوقت بصورة تجعل الحاضر والمستقبل متحضِّرينِ أيضًا. فمن غير تحضُّر الأرض والوقت سيغرق الحاضر والمستقبل في البداوة، وينعكس ذلك سوءاً على الإنسان، ويجعل الدولة -إن وجدت- أكثر عنفاً وظلماً؛ فتتفكَّك عناصر المعادلة الحضارية التي حصلت في التجربة اليابانية، فلا تحصل الإفادة المركّبة للعالم العربي الإسلامي.

٢. ما يُفترَض سلوكه:

انطلقت التجربة اليابانية من الموروث، وأفادت من الأسلاف، وكذلك مشروع ابن نبي؛ فإنّه يغترف من الموروث، ويفيد من الأسلاف، وهذا هو القاسم المشترك بينهما؛ بين التجربة والفكرة. والذي في نيّته أن يفيد منهما يُفترَض أن يسلك مسلكهما.

فهل للإنسان العربي المسلم شيء في الماضي المتحضِّر يستطيع أن ينطلق منه كما انطلق الإنسان الياباني من ماضيه المتحضِّر أو البداوة التي فيها شيء كثير من التحضُّر؟ لا شكّ في أنّ كلّ انطلاقة تريد أن تتميّز عن غيرها في الحاضر والمستقبل تتشكَّل داخل

هذا الماضي. فإذا استطاع الماضي المتحضِّر أن يكون انطلاقةً نحو التغيير بالنسبة إلى العالم العربي الإسلامي، فذلك أول المسالك للإفادة من التجربة اليابانية؛ وإذ ستكون نقطة الانطلاقة أصيلةً، فإنّ التنمية تكون فاعلةً. وإنّ فاعليتها تشترط حصول الدولة–التنمية التي لا تنسف الأوقات الثلاثة (الماضي، الحاضر، المستقبل)، وتمنح الإنسان الحرية من أجل الإبداع. تلك هي مداخل التنمية الإنسانية المركّبة (السلطة، النخبة، العامّة)، ومن غيرها تنقسم الأرض، ويضيع الوقت، ويستحيل الإفادة من التجربة اليابانية، وتَمَثُّل مشروع ابن نبي الحضاري.

خاتمة:

لقد كانت خاتمة العزلة اليابانية مقدّمةً للانفتاح وذات نجاح؛ نظراً إلى أنّ الانفتاح تضمَّن اللاانفتاح في مسيرة التنوير، كما تضمَّنت العزلة شيئاً كثيراً من اللاعزلة. فهذا الشيء من اللاانفتاح هو الجانب المتحضّر، والخصوصيات، والقاسم المشترك مع اللاعزلة. فاليابان لم تعش عزلةً وانفتاحاً تامّيْن. ومع أنّ العزلة استجلبت التميّز الذي منح التنمية المتبدِّية خصوصيةً متفرّدةً، إلّا أنّها أتت تنميةً حبيسةَ تميّزها؛ إذ التميّز وحده لا يصنع التقدّم. في حين استجلب الانفتاحُ التقدّمَ الذي منح ما بعد التنمية المتبدِّية حضوراً متفرّداً مصحوباً باستمرارٍ يواكب العصر.

وقد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

– تمثيل عناصر الحضارة –بالنسبة إلى توكوغاوا– مشروع تنمية فيه شيء من التحضُّر، لكنّه وصلنا مشروعاً مُختزَلاً يراهن على الأرض. وقد ظهر الاختزال في الإنسان الذي افتقر إلى الحرية، والرعاية الصحية، والتعليم الذي يخلق فيه الوعي بما يجري حوله. ومن ثَمّ فإنّ المعادلة الحضارية في فترة العزلة انمازت بعناصرها المتميّزة (الإنسان، الأرض، الوقت)، فلم تكن متحضِّرة، فبجست تنميةً متبدِّيةً لأنّها عجزت بعناصرها المُختزَلة أن تتقدّم إلى الأمام؛ إذ عجزت عن تنويع الخيارات، والتسهيلات الاقتصادية، والحريات السياسية، والفرص الاجتماعية.

-كشف عناصر المعادلة الحضارية الثلاثة الفاعلة عن اللاعزلة ضمن العزلة. فاللاعزلة هي انفتاح مطلق على الخصوصيات، وانفتاح نسبي على معارف الهولنديين وعلومهم، وتعلّم اللغة الإنجليزية، وإنْ حدث انبهار بحريات الغرب لا بعلومه كما ينقل فوكوزاوا في مذكّراته. وقد تجلّت هذه اللاعزلة في جهد الإنسان الذي حقّق الاكتفاء الذاتي، وفي مضاعفة الوقت الذي أمدَّ في عمر العزلة.

- عدم كفاية العناصر الثلاثة -كما ارتسمها ابن نبي- لتحصيل تنمية متحضِّرة في فترة العزلة المتبدِّية، في حين حقّقت فترة ميجي نجاحات لأنّها أضافت عنصر الدولة- الإنسان، فصارت أربعة عناصر، فحصل لها الفعل الحضاري المستدام.

وبناء على ما سبق، فإنّنا نوصي بالآتي:

- وقوف العالم العربي الإسلامي على التراحم بين السلطة والإنسان، وترجمته إلى عدالة اجتماعية واقتصادية للخروج من المأزق الراهن.

- وقوف النخبة العربية الإسلامية على مشكلات الحضارة لدى ابن نبي، ومشكلات الدولة لدى ابن خلدون؛ بغية تشخيص الأوضاع قبل التسرّع في إيجاد الحلول.

- إفادة النخبة العربية الإسلامية من النخبة اليابانية في كيفية تعليم الدولة وترشيدها.